



الراوي؛ في رواية "أدين بكل شيء للنسيان"
ل (مليكة مقدم)

The Narrator in the Novel "I Owe Everything to Forgetfulness" - by Malika Mokaddem

جليد أحمد

جامعة مصطفى اسطمبولي-معسكر (الجزائر)، ahmed.djlid@univ-mascara.dz

ملخص

يهدف البحث إلى رصد موقع الراوي والوقوف على جانب من أنماطه ووظائفه التي يضطلع بها في رواية "أدين بكل شيء للنسيان" لمليكة مقدم، إذ يمثل الراوي أول مكونات السرد الثلاثة (الراوي، المروي، والمروي له)، ويعد وسيطا بين المروي والمروي له، وموجها رئيسا لإيديولوجيا النص السردي، ويرتبط بالمروي عبر رؤية تؤطر الحكي من خلال آليات تنظيم السرد، وطريقة تقديم الأحداث والشخصيات. وقد حاول البحث الإجابة عن السؤال الجوهرى وهو: ما الموقع الذي يحتله الراوي بالنسبة للأحداث، وما هي أهم الوظائف التي اضطلع بها؟ وقد خلص البحث إلى بروز الراوي الغائب الذي يمتد حضوره من المدخل حتى الفصل الأخير، مع التركيز على شخصية سلمى التي نرى الرواية من خلالها.

كلمات مفتاحية: الراوي، المروي، المروي له، الرؤية، الوظيفة، مليكة مقدم.

Summary:

The research aims to examine the narrator's role in Malika Mokaddem's novel "I Owe Everything to Forgetting." It focuses on the patterns and functions he performs, as the narrator serves as the first of three components of narration (the narrator, the narrated, and the narratee). Acting as a mediator between the narrated and the narrative, the narrator guides the text's ideology and shapes the story through narrative organization and the presentation of events and characters. The research aims to monitor the position of the narrator and to explore some of the patterns and functions that he undertakes in the novel "I Owe Everything to Forgetting" by Malika Mokaddem, as the narrator represents the first

of the three components of the narration (the narrator, the narrated, and the narratee), and is considered a mediator between the narrated and the narratee and the main guide to the ideology of the narrative text, and is linked to the narrated through a vision that frames the story through the mechanisms of organizing the narrative, and the method of presenting events and characters. The research attempted to answer the essential question: What is the narrator's position concerning the events, and what are the most important functions that he undertook? The research concluded with the emergence of the absent narrator whose presence extends from the introduction to the last chapter, focusing on the character of Salma through whom we see the novel.

Keywords: Narrator, Narrated, Narratee, Vision, Function, Malika Mokaddem

1. مقدمة : شهدت الدراسات السردية الحديثة اتجاها ملحوظا نحو الكشف عن أبعاد الخطاب السردى، وبيان خصائصه ورؤاه، ويبدو ذلك جليا من المحاولات التي قامت منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، في التنظير والممارسة النقدية لكل أشكال الحكى. وقد بدأت أولى الجهود في التعامل مع الفن القصصى بدراسة الرؤية السردية (وجهة النظر أو المنظور) التي ينتجها الراوي بما تتضمنه من أحداث ووقائع وشخصيات، وتجلت قراءاتهم من خلال الراوي وأنواعه والعناية برؤيته للعالم المتخيل، فجاءت هذه الدراسات كاشفة عن موقعه وأنماطه ووظائفه.

وقد اخترنا الحديث عن الراوي في رواية "أدين بكل شيء للنسيان" لأهمية موقع الراوي وحضوره المؤثر داخل نسيج الخطاب السردى، تحدونا الرغبة في محاولة استكناه تجليات الراوي وتقصى وجهة نظره في الرواية، من خلال الإجابة عن الأسئلة التي تطرح نفسها: من المتكلم في الرواية؟ وما نوع الراوي في هذه الرواية؟ وما هي الرؤية الغالبة لدى الراوي في هذه الرواية؟

وقد اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى مقدمة، وتمهيد شكل المهاد النظري للدراسة، حيث تطرقنا فيه إلى المفاهيم النظرية الأساسية، ثم حاولنا تطبيق هذه المفاهيم على الرواية في الجزء المتبقى من البحث، وانتهينا إلى خاتمة رصدنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها، وقد اعتمدنا المنهج الوصفى التحليلي في رصد الأنماط وتحليل الوظائف والرؤية.

2. مفاهيم أساسية

1.2 في تعريف الراوي: تورد بعض الدراسات النقدية العربية الحديثة مصطلح الراوي أو السارد دلالة على من يقوم بإبلاغ المروي له بتوالي أحداث القصة. وقد فضلنا انتقاء

مصطلح الراوي ذلك أنّ الراوي في الرواية هو شخصية خيالية تحوّل إليها المؤلف. غير أن تلك الشخصية التخيلية غالباً ما ترتدي أقنعة متناقضة تتراوح بين صورة مؤلف من لحم ودم، وصورة شخصية ما يبلّغ من خلالها الراوي أفكاره، ولذلك يمكن الحديث عن نوعين من المحكيّات محكي يكون فيه الراوي غائباً عن الحكاية التي يحكيها، خارجاً عن نطاق الحكّي، والمحكي الذي يكون فيه الراوي حاضراً باعتباره شخصية في الحكاية موجودة داخل الحكّي.

من هنا أمكن التمييز بين راوٍ غريب عن الحكاية، وإن كان هذا الراوي يرى كل شيء بعيون الشخصيات، وينقل ما يسمع للمرّوي له، وبين راوٍ حاضِر وفاعل في الحكاية، وهذا الراوي هو غير الكاتب الذي يوجد أو يكون قد وجد من لحم وعظم في عالمنا، أما الراوي الذي ظهر يروي الحكاية داخل الكتاب فهو لا يوجد إلا بالكلمات في النص، وهذا التمييز يؤسس جزءاً كبيراً لحريّة الكاتب، إنها تسمح للفهم بأنّ الكاتب نفسه يستطيع أن يكتب رواية مختاراً سارداً، قد يكون رجلاً أو امرأة من الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

ونودّ أن نفرّق بين الكاتب/الروائي، وبين الراوي الناقل لرؤيته الفنية والفكرية. وتسعى دراسة الرواية إلى توضيح الفروق بين مجموعة من العناصر المختلفة في مجال إبداع الخطاب الروائي وتلقيه، وهي تتمثل في الروائي-الراوي-المرّوي له، وكل عنصر من هذه العناصر مستقل نسبياً عن الآخر، وله قواعده الخاصة في الماهية والوظيفة، فالراوي هو الذي يروي الحكاية، وهو غير الكاتب، فالروائي عندما يقصّ لا يتكلم بصوته، ولكنه يفوّض راوياً تخيلياً، هو الذي يتكلم في السرد، وينظم العملية السردية بكاملها.

وإذا كان الراوي يعدّ عنصراً من عناصر البناء السردية، فإنه عنصر أكثر أهمية، ولا يمكن وضعه - من حيث التعادل الوظيفي - مع بقية العناصر الأخرى مثل الشخصية أو الزمان أو المكان، فالراوي عنصر متميز وظيفته مختلفة، فهو الذي يمسك بكل عناصر القص. أي أنه عنصر مهيمن في حركة العلاقات بين كل عناصر القص.

الراوي شخصية أساسية في أيّ عمل قصصي، لأنه هو "الوسيط" الذي اختاره الكاتب ليكون نائباً عنه أو بديلاً في سرد الحدث القصصي من البدء حتى الختام. الراوي كائن خطاب، فهو تلك القوة المنشئة له، التي تنهض بفعل السرد، وهو الحلقة الواسطة بين المرّوي والمرّوي له، وللراوي حضوره المميز في كل نص سردي، فلا يمكن أن يوجد سرد بدون سارد وبدون مستمع (أو قارئ) كما يقول رولان بارت.

يشكل الراوي المحطة الرئيسة في تشكيل البنية السردية للخطاب، وهو من الأهمية بحيث لا يمكن أن يوجد سرد بدون سارد، بل إن تعريف النص السردى «وفقاً لطريقة عرضه (والتوكيد على دور الراوي) بدلاً من تعريفه وفقاً لموضوع (الأحداث) إلى إهمال القصص التي بدون راوٍ»⁽¹⁾، ومن هنا فإن الراوي على علاقة وثيقة بالنص السردى الذي يتسم بحضور سارد يكون وسيطاً بين المؤلف والنص الروائى. فالمؤلف يتخفى بوصفه الراوي وراء قناع الشخصيات أو قناع الصوت السردى المهيمن.

وقد دفع السؤال عن الراوي إلى ظهور العديد من المدارس النقدية التي درسته من خلال مبحث "وجهة النظر"، وأعاد "جيرار جينيت" درسه تحت مصطلح "التبئير" للتفريق بين مَنْ يرى؟ وَمَنْ يتكلم؟

ينظر النقاد إلى الراوي -من حيث النمط والوظيفة- من خلال علاقته بالشخصيات، ودوره في تحريكها درامياً من خلال المتن الحكائى. فالراوي ليس نمطاً واحداً، وإنما مجموعة أنماط تعبر عن مجموعة من رؤى أو إيديولوجيات مختلفة فكرياً وفنياً، ولما كان جوهر الصياغة القصصية يكمن في طبيعة علاقة الراوي بالشخصيات ومدى إحاطته بالوقائع والحقائق، التي يتكون منها العالم التخيلي، فقد اهتم النقاد بتحديد هذه العلاقة، ومدى تطابق ما يحيط به علم الراوي أو تمايزه مقارنةً بشخصيات الرواية.

ويمكن تقسيم العلاقة بين الراوي والشخصيات إلى ثلاثة أقسام طبقاً لتقسيم الناقد

الفرنسي جان بويين:

الراوي < الشخصية ... (الراوي يعلم أكثر من الشخصية)

الراوي = الشخصية ... (الراوي يعلم ما تعلمه الشخصية)

الراوي > الشخصية ... (الراوي يعلم أقل مما تعلمه الشخصية)

وأطلق جان بويين تسمية "الرؤية من الخلف" على العلاقة الأولى، و"الرؤية مع" على العلاقة الثانية، و"الرؤية من الخارج" على العلاقة الثالثة، تؤدي العلاقة القائمة بين الراوي والشخصية إلى أساليب مختلفة في صياغة النص القصصي، بعضها يتصل بالبناء الزماني والمكاني للرواية، وبعضها يتصل ببنية الشخصية نفسها، وأخرى لغوية تتصل بوسائل التعبير.

2.2 أنماط الراوي: هناك ثلاثة أنواع رئيسية عامة تمثل الأنماط الأكثر شيوعاً وتداولاً في معظم أساليب القص قديماً وحديثاً، وتنحصر في ثلاثة أنواع هي:

الراوي الغائب.. العالم بكل شيء: وهذا النمط يعد أقدم أنواع الرواية، وهو راوٍ تقوم وظيفته على الرؤية من الخلف، لأنه يعلم أكثر مما تعلمه أي شخصية من شخصيات العالم الروائي، وهذا النوع من الرواية يروي من خلال ضمير الغائب "هو"، وهو الذي يحرك الشخصيات، وقد يظهر أحياناً من خلال بعض الآراء التي يقدمها والأحكام التي يطلقها. فهو قناع من أقنعة المؤلف،

الراوي المشارك: وهذا النمط يقوم بدور الراوي ودور الشخصية. وهناك اشتراك أو تداخل بين الراوي وبين إحدى الشخصيات الروائية (في الغالب تكون شخصية رئيسية)، لذلك يتشكل المنظور من "الرؤية مع" أي أن الراوي والشخصية متساويان في العلم والمعرفة فيما يتصل بكل قضايا المبنى القصصي.

الراوي المتعدد: في هذا النوع يتناوب أكثر من راوٍ حكى عملية القص، ويشكل بناء الحدث أكثر من سارد، وهذا النوع من الرواية المتعددين يعطي الرواية تميزاً وخصوبة ويعد من سمات "قص الحداثة". وأول من توقف عنده وقفة نقدية متأملة هو ميخائيل باختين في كتابه "شعرية دوستويفسكي" حيث يذهب إلى أن دوستويفسكي هو خالق الرواية المتعددة الأصوات.

3.2 **الراوي والشخصية الروائية:** تقدّم لنا رواية "أدين بكل شيء للنسيان" للكاتبة مليكة مقدم إمكانيات واضحة لمساءلة العديد من القضايا، ونحن حينما نطرح الرؤية السردية للتحليل والتناول، فإننا نركّز، من خلالها، على منظور كل من الراوي والشخصية الساردة استجابة للخصوصيات التي يقدمها هذا النص الروائي على مستوى تجليات الراوي وحضوره الفعلي، وأيضاً في ارتباطه بالتقسيم النصي لرواية "أدين بكل شيء للنسيان"، هذا التقسيم الذي يحقق نوعاً من التجاور أو التناسق الحكائي، انطلاقاً من التصوّر الذي يرى أنّ اختيار الروائي قائم بين موقفين سرديين:

فإنّما أن يقبل بعرض محتوى عمله عن طريق شخصية من شخوص روايته، أو أن يعتمد إلى خلق راوٍ يتولى ذلك خارج الرواية. ولهذا الأمر غالباً ما يقع التمييز بين نوعين من الحكايات؛ تلك التي يكون فيها الراوي غائباً عن القصة التي يحكيها، وتلك التي يكون فيها الراوي شخصية ماثلة في القصة المروية. وعلى هذا فالراوي في هذه الرواية هو راوٍ عليم

بمجريات الأحداث من البداية حتى النهاية، لا يحمل اسما معيناً، وإنما يقف وراء كل صغيرة وكبيرة من خلال سرد الوقائع المتلاحقة في الرواية، والمتلقي على يقين أن الراوي يحيط علماً بكل تفاصيل ما يروي من الأحداث الأليمة والسعيدة، بل إنه يدخل إلى مسارب نفوس شخصيات روايته فيتحدث عن مكنوناتها.

من الراوي في رواية "أدين بكل شيء للنسيان"؟

تخضع نمطية المحكي في (المدخل) لضمير الغائب الذي يحقق الوظيفة التواصلية الأولى بيننا وبين أحداث النص الروائي، ولا يقتصر ضمير الغائب على التقديم والإضاءة، «يد الأم التي تستولي على وسادة بيضاء، تغطي بها وجه الرضيع الممدد على الأرض بالقرب من الخالة زهية، وتضغط. هذه اليد التي تشدّ على المخدّة وتتمادى في الضغط، التقلصات العضلية للولد التي تدرك بالكاد، هو الموثق بخرق تشده من جذر اليدين إلى أخمص القدمين، صراخ زهية الصامت الذي يبدو متجمّداً تماماً. ترتعد سلمي، هل هو كابوس؟»⁽²⁾. ويجاوز ضمير الغائب وظيفة التقديم والإضاءة إلى امتلاك القدرة على التذكر والاسترجاع «تميل متنبهة على مسند الأريكة، ويعود إليها في الحال إطباق الأم بالمخدّة البيضاء، ارتعاش الجسد الصغير الملفوف وملح نظرة الخالة زهية، صفاء وحدّة مذهلان»⁽³⁾. هذه المفاجأة هي التي تعطي قيمتها العادلة لهذه الذريعة السردية التي ستشكل قصة الرواية.

ومن هنا فإنّ نص (المدخل) هو نص الراوي ومجال حضوره الذي يمتد حتى الفصل الأخير. وهذه بعض تجليات الذات الساردة في رواية "أدين بكل شيء للنسيان"، حاولنا أن نحصر مظاهرها النصية الأولى وفق ما يقدمه (المدخل) من معطيات. ويبدو واضحاً أن الراوي ما هو إلا صوت من بين أصوات سردية أخرى ستساهم في صياغة الخبر الروائي، كما أنه يفرض سلطته المعرفية من حيث هو مؤلف واقعي وحقيقي للنص، بالرغم من أن الراوي يفتقد إلى اسم شخصي، أو على الأقل لا يكشف عن اسمه. وفي هذه الحالة، وكيفما كانت الوضعية الاجتماعية للراوي، فإنّ غياب اسمه يحدث نقصاً جوهرياً في الإيهام بالواقع، ويساعد على الفصل بين النص السردى والكاتب ويترك القارئ تحت تأثير اللعبة الفنية التي أدائها اللغة.

3. وظائف الراوي: سنحاول تحديد أهم وظائف الراوي في رواية "أدين بكل شيء للنسيان" لمليكة مقدم، وقد ساهمت تلك الوظائف في بناء الرواية فأعطتها ميزة الاختلاف السردي عن مثيلاتها من الروايات الجزائرية التي كان موضوع العنف على المرأة محورا أساسيا في بناء معمارها الفني، مما يفضي إلى تعدد الوظائف لتؤلف فيما بينها البناء الفني للرواية كما تبرزه وظائف الراوي التالية:

1.3 الوظيفة السردية: من أولى الوظائف التي يضطلع بها الراوي وأكثرها شيوعا، ومنها يستمد الراوي علّة وجوده، إذ يقوم بها مهما كانت وضعيته اتجاه المستوى السردى، فالخطاب السردى لا يكون مميزا بمادته الحكائية فحسب، ولكن أيضا بواسطة هذه الخاصية الأساسية التي تتمثل في أن يكون له شكل، أي الطريقة التي تقدّم بها تلك المادة، الأمر الذي يستتبع وجود طرفين أساسيين في كل حكي، الأول هو الراوي الذي يروي القصة، أما الثاني فهو المروي له.

الراوي يروي الأحداث ويعلق عليها، ويكون هو العون الأساسي في السرد وإن شاركه فيه غيره بين الفينة والأخرى، مع المحافظة على مسافة بينه وبين الشخصيات في الرواية مهما كان الدور الذي تؤديه. وتستغرق الوظيفة السردية مجمل الحدث الروائي، إلا أنها لا تلغي باقي الوظائف الأخرى. ويعد الوصف من عناصر السرد المهمة والفاعلة في نقل الصورة أو الأشياء، إذ يقوم الراوي أثناء عملية السرد بوظيفة وصفية، تتمثل في تقديم مشاهد وصفية للأحداث والأماكن والأشخاص، ويتصدّر هذه الوظيفة الراوي العليم أو كلي العلم،

إذ تبدأ الرواية من المشهد المتكرر الذي تحتفظ به سلى أمام بصرها: مشهد وأد الطفل الذي شاهده في سن مبكرة جدا، في الفضاء المعتاد بقدر ما عاشته في ذاكرتها؛ الصحراء، والرياح، والرمال، والروائح اللاذعة، تشهد سلى عملية قتل طفل في منزلهم عن طريق الخنق، ويصبح كشف هذا السر المحمي مصدر قلق أساسي لها، وستعتمد علاقتها مع والدتها على ذلك الآن، بل عليها أن تجعلها تعترف، إنّه المعنى الكامل لعنوان الرواية الذي يكمن في هذه الذاكرة الكابوسية، هذه الذاكرة المدفونة لأحد الأطفال تعود إلى رأس سلى، فتقرر تسليط الضوء على هذه الحلقة المظلمة. تعود إلى بشار للمواجهة مع عائلتها، والدتها بشكل أساسي. لقد كانت بالفعل سفاح القربى، التي تعترف لها أنه كان من الضروري أن يموت الطفل... كل ما تبقى من هذه «الرواية» هو كتيب ضد التقاليد المهينة للمرأة والعنف الأصولي والتراجعات والتناقضات الجزائرية... «عليها الآن أن

تتعلم، من الآن فصاعداً، تحديد الجريمة، عليها أن تتفرس في الأم وتسألها على كل ما اقتسمته معها دون علمها، عن كل ما لم تقوله طيلة الحياة، ذاك الذي يفرقهما إلى الأبد، ألم الأم هذا».

وقد انبثقت الوظيفة الوصفية في الرواية من خلال التعبير عن مشاهد وصفية لحالات نفسية واجتماعية استمدت حيويتها من التجارب الخاصة التي مرت بها بطلة الرواية، حيث «رأت سلى نفسها هناك في الصحراء. كم كان سنّها؟ ثلاث سنين ونصف؟ ليس أكثر، كانت النسوة يصرفنها، لا شيء أفضل من هذا لتأجيج فضولها، تظل هناك تطوف. الباب مفتوح وعصف الرياح لم يبدأ بعد، لا يوجد في البيت سوى غرفتين تطلان على الفناء. لقد وضعت البارحة الخالة زهية، الأخت الصغرى للأم مولوداً جديداً»⁽⁴⁾.

وتركز البنية السردية في رواية "أدين بكل شيء للنسيان" على صوت شخصية الراوي الذي يمكن القارئ من إدراك الكثير من التوضيحات التي تخص حادث مقتل الرضيع، وذلك من خلال تعدد المنظورات والرؤى السردية، بحيث يتم التركيز على مستوى فضاء كل فصل على تركيب حكاية المفصل الحدث الرئيسي ويؤطره بالكثير من الحكايات التي تظل غير مستقلة عن بنية ذلك الحدث.

2.3 الوظيفة التنظيمية: يقوم الراوي بالتنظيم الداخلي للخطاب الروائي، وتتمثل في الكشف عن تفاصيل الحكاية الكبرى والربط بين أجزائها وضبط ما بينها من علاقات، حيث يفتتح الراوي بعض المقاطع السردية في الرواية بأحداث سابقة، وقد رأينا كيف عمل الراوي على تنظيم زمن الحكاية من خلال الارتداد الذي شغل مدخل الرواية «يد الأم التي تستولي على وسادة بيضاء، تغطي بها وجه الرضيع الممدد على الأرض بالقرب من الخالة زهية، وتضغط. هذه اليد التي تشدّ على المخدة وتتمادى في الضغط، التقلصات العضلية للولد التي تدرك بالكاد، هو الموثق بخرق تشده من جذر اليدين إلى أخمص القدمين، صراخ زهية الصامت الذي يبدو متجمداً تماماً. ترتعد سلى، هل هو كابوس؟»، إلى جانب ما نجده من تصرف في طرائق إدراج أقوال الشخصيات.

3.3 الوظيفة الإيديولوجية: الوظيفة الإيديولوجية من أهم الوظائف التي يعتمد عليها الراوي في تمرير أفكاره وآرائه على لسان الشخصيات، وهي الوظيفة التي تتعلق بالخطاب

التنويري أو التربوي أو الأخلاقي أو المذهبي الذي يحمله الراوي في عباراته، وفي طريقة سرده للأحداث، وتتعلق أيضاً بالقوانين التي يستعملها في ترابط هذه الأحداث، إذ تكشف هذه القوانين عن الاتجاه الفكري الذي تدعو له القصة، أو تعبر عنه.

ويتدخل هنا الراوي في المروي بالوصف أو التعليق أو التقويم بوسائل تعبيرية يتوسل بها الكشف عن نظرة إيديولوجية، قد تكون ظاهرة أو باطنة في النص السردی وإحدى هذه الوسائل الاستفادة من النعوت والألقاب الراسخة في الموروث الشعبي.

ولو أردنا اعتماد هذه المعطيات النظرية المتصلة بالتأثير الإيديولوجي في الكتابة السردية وتجلياتها في رواية "أدين بكل شيء للنسيان"، سنجد الإحالة على الألقاب والكنى التي تحيل على منظومة من الدلالات العرفية والثقافية في المجتمع الجزائري، وذلك أن الكنى تحدّد هوية الفرد مدحاً أو ذمّاً لما لها من طابع إيديولوجي ومن خلالها يتموقع صاحب الكنية طبقياً وفكرياً، فها هي سلمى تراها بدينة سعيدة، تسمع زوجها يناديها "سمّاني"، كلمة السماني تناسبها بشكل مذهل.

ويتجلى الأثر الإيديولوجي من خلال إشارات الراوي الساخرة من المعتقدات الدينية «كانت سلمى الملحدة تندesh لرجل يتوقف وحيدا ليصلي أمام المد المديد للصحراء، هادئاً وبسيطاً، كله في أصالة الشعور الديني. وبالمقارنة، فإن الفريق الذي يلبي الدعوة، على بعد أمتار من الحافلة يبدي تفاخراً مقيتاً، يتراقب الحركة المسرحية، سُمّاهم تدل على أنهم مراؤون، لا يوجد شيء في لباسهم السخيف الذي استعير جزء منه من البزة الأصولية لا يدل على الرياء. ما عدا خمس نساء اثنتان منهن محجبتان، وثلة من الرجال رفضوا أن يكونوا جزءاً من القطيع»، ويبرز الراوي موقف سلمى من التدين المغشوش كما تراه «في حين استمروا بنبرة فضة في حمد البارئ أو في طلب المغفرة. مغفرة ماذا؟ ولماذا؟ غفران الهمّ الذي يعيشون فيه؟ ذنب وجودهم؟ هل ارتكبوا شيئاً آخر، ما عدا تشويه تدينهم المفرط إلى درجة تحويله إلى دجل؟ ومع ذلك فإن طلب الغفران من الله لم يمنع أبداً التنكر الأصولي من قتل مخلوقاته... عاد ثلاثة أو أربعة أبالسّة صغار نحو الحافلة وهم يزّرون فتحات سراويلهم»⁽⁵⁾.

وفي سلوك رشيد وزينب إشارة إلى ما شهده المجتمع الجزائري من مظاهر شديدة الغرابة والالتباس، إذ ها هو رشيد يفتح قنينة نبيذ معسكر، ودون التخلص من هيئته المزّاحة يقول: «مكة للإيمان ونبيذ معسكر للكبد. أتمنى ألا أنتظر إصابتي بتشمع لأشرب النبيذ في بيتي يوم العيد، مع إدانة عامة. أما اليوم وقد أصبحنا حاجين فقد أصبحنا ملزمين بالمجيء

من أجل الاختباء عند قومي لتناول بعض الشراب، تتحدثين عن بركة!»⁽⁶⁾. لقد أصبح بمقدور سلمى أن تردّ على السيدة "الريميتي" كما بالقول المأثور الملائم: لن تنجو الجزائر إلا عندما تتجهز بقوانين عادلة وبعلمانية، عندما لن تكون مدارس الجمهورية أماكن يغرق فيها الأطفال في الظلام.

4.3 الوظيفة التأثيرية: تركز على العاطفة والوجدان، إذ بها تتجلى المشاعر والأحاسيس التي تثيرها القصة أو روايتها لدى المروي له، فيلجأ الراوي إلى اختيار الصور الأشد تأثيراً في النفس البشرية لتحريك مشاعرها واستفزازها، فيصحو الضمير الإنساني من غفوته أمام هول الصدمة التي صاغها الموت الرمزي والحقيقي المهيم بسطوته على البطلة سلمى، ولينهض الراوي بهذه الوظيفة استهل الرواية بمشهد القتل «لقد بهتت إذ أبصرتها تشد وسادة وتضعها على رضيع زهية، البنت الصغيرة لا تعرف شيئاً عن الموت، لا تدرك مغزى هذا الفعل. لكن العنف استولى عليها مباشرة فابتعدت مترجعة، وعندما وصلت إلى الفناء أطلقت الريح لساقها، جرت طويلاً جداً والريح تدفعها قبل أن تقع أرضاً، انكمشت وقتئذ وغطت وجهها بيديها»⁽⁷⁾. وهو الخطاب الذي يتخذ من الموت بؤرة سردية تنظم عناصر المحكي، والموت بؤرة سردية وسمت الرواية، لأن الراوي يريد التأثير على المروي له بسرده للطريقة التي تمت بها عملية قتل الرضيع.

هدف الراوي التأثير في المروي له من خلال حالات المرض والموت، «انتفضت سلمى لأولى رنات الهاتف، الفياقة تشير إلى السادسة صباحاً، لن تشتغل اليوم وقد وعدت نفسها بالنوم إلى الضحى، إنه صوت الخال، وتملكها الخوف بغتة: "صباح الخير سلمى .. أمك، توقف قلبها، ماتت هذه الليلة، الله يرحمها. ندفنها في نهاية الصبيحة. تعازي...»⁽⁸⁾. ها هي سلمى تستقبل خبر موت أمها بكثير من الحزن، سلمى التي كانت علاقتها بأمها فظة، بلا حنان، سرعان ما أدركت أنها تستقبل هذه المكالمات بعد ثلاثين سنة من إقامتها في فرنسا، «استغرقت سلمى وقتاً طويلاً، وقد ارتاحت، لتدرك حجم الدموع التي تبلل وجهها، فائض طفح ببطء ثم انتشر، كم من مرة صاحت سلمى: لن أذرف دموعاً واحدة يوم وفاتها».

5.3 الوظيفة التفسيرية: لا يكتفي الراوي بنقل الأحداث وتصويرها، بل بالتعليق عليها وإيضاحها وبيان عللها، أي أن الراوي يتجاوز تقديم الحكاية إلى البحث عن حكاية الحكاية، عن أصل الحكاية، ومن ثم فإن التعليل والشرح والتفسير يبرز الخصائص الذاتية لهذا

الراوي، ويرسم صورته، فالأحداث نفسها عندما تقع في الحياة لا تكون معللة أو مفسرة، وكذلك فإن العرض المحايد لها ينبغي ألا يضيف إليها شيئاً جديداً ما دام الهدف هو مجرد إعطاء صورة لها، لكن الحقيقة أن قطعها عن سياقها الحياتي وإدراجها في سياق آخر يجعلها أكثر وضوحاً وأسهل تفسيراً، وكذلك فإن الحدث عندما يُحكى عن طريق وعي بشري فإن هذا الوعي لا يملك أبداً أن يكون محايداً، إذ لابد أن يبحث عن الأسباب والمسببات.

وفي كل حكاية يمكن أن يكون لها عدد هائل من الأسباب والعلل، حسب اختلاف الرؤية المبينة لهذه الحكاية، أي حسب اختلاف الراوي، لذلك نجد الفقرات السردية الدالة على الشرح والتفسير في كثير من القصص والروايات تفوق الفقرات السردية الدالة على حركة الحكاية، ونجد بعض الروايات تتكئ على هذه الوظيفة انكاءً تاماً.

في هذا المجال اضطلع الراوي بعدة وظائف: ومنها ربط الأحداث وتذكير المروي له بما مضى لأن الحاضر نتيجة منطقية للماضي، وعنه تناسلت أحداث الحاضر وهي بوابة على أحداث المستقبل، ولا يعني انفتاح الراوي على الماضي أنه يروي رواية تاريخية وفق تسلسل زمني خطي بل يقف في محطات تاريخية كاسراً خط الزمن تقديمًا وتأخيرًا مبرزاً سمة بعض المراحل في مجرى الأحداث وهدفه تفسير أحداث الماضي والحاضر ليستشرف المستقبل، وهذه النزعة التفسيرية لا تخلو من تعليمية هادفة تكشف عن الخلفية الفكرية للراوي،

لم يستطع الويسكي أن يشفي غليل سلمي أمام السؤال المحير: كم هو عدد الأطفال غير الشرعيين الذين خُنقوا في هذا البلد؟، هذا السؤال وغيره كان يحرق دم سلمي «لم تسجل إذن ولادة الصبي في البلدية، لم يوجد قط. "كنّا مضطرين إلى إخفاء كل شيء!" كيف يمكن للأُم أن تنام بعد هذا الاعتراف؟ "ماذا كنت تريد أن نفعل؟" تزويج زهية بأحد الأعمام، قتل رضيع، الأمر مختلف عن إجهاض في نهاية الأمر»⁽⁹⁾.

وعلى هذا النحو يقدم الراوي تفاسير لبعض السلوكيات ليصل إلى استنتاجات ليقنع المروي له بما يروي، فتجلت قدرة الراوي التحكّم في كمّ المادة حسب الهدف الذي يرمي إليه تفسيراً، فهو يفسر أسباب ظاهرة الأطفال غير الشرعيين التي تتجلى في الاختلاط والكبت الجنسي، يقين مخيف تدخل ليرصص ليل سلمي: بعدد السكان الذي تضاعف أكثر من ثلاث مرات منذ الاستقلال، النزوح الريفي الجماعي، نقص المساكن الذي يجعل عدّة أجيال من عائلة واحدة يتراكمون في مساحات ضيقة، لابد أن الجزائر تحطم الرقم القياسي في زنى المحارم وقتل الأطفال، ولكن هذا لن يعني أبداً أية إحصائيات.

6.3 الوظيفة التواصلية: تتمثل الوظيفة التواصلية في توجيه رسالة من المرسل إلى المرسل إليه، فوجود راوٍ يحتم قبلها وجود مروي له يتلقى خطابه، وتقتضي الرسالة كي تكون فاعلة سياقاً تحيل عليه، إذ إن البنية السردية هي رسالة لغوية تعبّر عن عالم متخيل، يتجاذبها طرفا الإرسال اللغوي الراوي/المروي له.

وتتمثل في التوجّه إلى المروي له للتأثير عليه وإبقائه على اتصال، من خلال تعابير وصيغ استفهامية من معانها التصديق قصد تنبيه المروي له وتشنيف حاسة السمع لديه، ثم شدّه إلى حبل الحكاية «عادت سلعى إلى الرضيع الذي تمت التضحية به: "هل كان الرضيع الأول أنثى؟ وكيف ماتت؟" (...) بينت الأسئلة الدقيقة التي تضمنتها المواجهة جنس الرضيع" بلى، لم يكن بنتاً، كان ولداً، وُلد المسكين بكثير من الإفرازات في الأنف والحلق من فرط ما تناولت زهية منقوع الحشائش والجذور للإجهاض. خنقته»⁽¹⁰⁾.

7.3 الوظيفة التقييمية: تتّصل اتصالاً مباشراً بالوظيفتين السابقتين، ويدخل في إطارها النقل المتحيز لكلام الشخصيات وفكرها، والتفسير المغرض لأفعالها، وكذلك مناقشة سلوكها وبيان درجة صوابها أو خطئها ثم تأييد فكرها أو تفنيده أو تطويره، والعنصر الذي يضيفه الراوي في النص، أو الذي يدل على الراوي في النص هو ظهور فكر الشخصيات وكلامها وأفعالها موزوناً بفكر آخر، وكلام آخر، وقد يبدو هذا التقويم من خلال الأسلوب السردى المستخدم في نقل الأحداث أو الأفكار أو الأقوال، التي تتناسل عبر عطاءات النص الروائي المترعة بالدلالة التي يلقيها علينا بناؤه الفنى.

ومن خلال هذه الوظيفة يقوم الراوي بدور العليم بخصائص تفاصيل الحكايات، وكذلك بمهمة العليم برغبات الشخصيات، فيصدر أحكاماً قيمية على كل حكاية سمعها وعلى كل واقعة عاينها. وغايته تفسير وتبرير ما شدّ من سلوك الشخصيات، فيصف ظاهر الشخصية ثم يستبطنها لمعرفة ما يخالجه من أحاسيس، لأن وصف حالة شخصية واحدة واستبطنها ينسحب على حالات في حكايات أخرى، وهذا يعني أن الحالة التي يقيّمها الراوي ليست حالة فردية «يبدو أن الويسكي كان يؤجج سلعى دون أن يسكرها. قبلت هذا المساء بأن يكون فقدان الذاكرة هو الصمت الوحيد الذي تواجه به صمتهم. ولكن، أيّ طعم اصطناعي! إذا كانت قد أعفت نفسها كلياً، هي المتمردة، من واجب فضح العائلة كلها، فإنها لم تشعر

بأنها أقل يُتَمَّ بسبب ذلك. لا يهم، سيسمح لها هذا اليقين في هذا المساء بالتماسك مع العار والجرم».

لا يحصر الراوي حكمه على عينة واحدة، بل يسحبه على عينات شتى من الحكايات فيكتسي حكمه صبغة يقينية تعميمية، وهو يسعى لإبراز حكم قيمي صريح يكشف به الحقائق المطموسة لتكون تلك الشخصية بمثابة المرجع، لقراءة الواقع قراءة مغايرة للقراءة الرسمية، أخرج هيجان قومي سلى من حلم اليقظة، استاء من وضعية الشوارع متخذاً إياها شاهداً على الوضع المزري لوهران بسبب إهمال السلطات، لم تعد الجدران تذكر رائحة اطلاق وتركيبه، واجهات البنايات المقشرة المليئة بالصدوع تدين الإهمال، وكحجة على ذلك أماكن تفرغ القمامات التي تتكدس هنا وهناك، تلك التي نترج متعرجين فيما بينها.

«أحياء الوزراء في الجزائر العاصمة، السفارات، مسارات الشخصيات الرسمية كلها مكساة، مصونة، وتظل وهران منفية مع سكانها في الازدراء والأقذار، يضاف النمو الديموغرافي إلى الإهانة التي ألحقت بوهران. المدينة مثل جرح مُنْتَن على وجه بلد لا يستطيع الاهتمام بنفسه لأنه امتنع عن تعلّم الحب»⁽¹¹⁾.

8.3 الوظيفة التوثيقية: تكاد تكون عامة، لأن النص واقعي اجتماعي، وتأخذ هذه الوظيفة طابع الذكريات واسترجاعها باعتماد الأشخاص المقربين، وممن لهم صلة بالراوي، «... ولأنها عاشت علاقات عاطفية رائعة في وهران، فقد أبدت حنينا على هذه المدينة، الأمر ليس كذلك بل مختلف مع صحراء والدها، بل مختلف تماما. ها هي سلى في المنعرج بعد ثلاثين سنة، باقة بيضاء بين اليدين وقومي إلى جانبها، يحضنها صديقها ورأسه ملتصق برأسها»⁽¹²⁾.

4. خاتمة: في نهاية هذا البحث يمكن رصد عدد من النتائج منها:

- بروز الراوي الغائب الذي يمتد حضوره من المدخل حتى الفصل الأخير، مع التركيز على شخصية سلى التي نرى الرواية من خلالها.
- إن لجوء مليكة مقدم إلى الراوي العليم المحايد كان محاولة هروب من أسر أسلوب السيرة الذاتية، وهي تقنية مكّنت الكاتبة من التواري فيطرح ما يريده من أفكار.
- من أولى الوظائف التي اضطلع بها الراوي الوظيفة السردية وفيها اهتم الراوي بتقديم الشخصيات بحسب الأهمية والخيار القصدي.

- حرصت الكاتبة من خلال الراوي على دقة تنظيم الأحداث في تسلسل واقعي تبعاً لمبدأ الأسباب نفسها التي تؤدي للنتائج نفسها.
- الراوي لم يعتمد على التلميح والإيماء وفسح المجال للتأمل والتساؤل، بل عمد إلى التعليق واستصدار الأحكام.
- يوصي البحث بدراسة الراوي في أعمال مليكة مقدم الأخرى ورصد مواقفه فيها، حتى تستكمل الرؤية السردية في كامل أعمالها.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 - جيرالد برنس، علم السرد، ضمن موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي ج 8 من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية، ترجمة مجموعة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط 1، 2006م، ص 202.
- 2 - مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت-الجزائر، ط 1، 1433هـ-2012م، ص 7.
- 3 - المصدر نفسه، ص 7.
- 4 - المصدر نفسه، ص 13.
- 5 - المصدر نفسه، ص 109-110.
- 6 - المصدر نفسه، ص 97.
- 7 - المصدر نفسه، ص 14.
- 8 - المصدر نفسه، ص 91.
- 9 - المصدر نفسه، ص 49.
- 10 - المصدر نفسه، ص 46.
- 11 - المصدر نفسه، ص 33.
- 12 - المصدر نفسه، ص 32.

6. قائمة مصادر ومراجع البحث:

1. جيرالد برنس، علم السرد، ضمن موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي ج 8 من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية، ترجمة مجموعة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط 1، 2006م.
2. مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت-الجزائر، ط 1، 1433هـ-2012م.